

الفصل الرابع

يوتوبيا

سير توماس مور

الكتاب فتان : فئة جذبت الناس الى إنتاجها الأدبي لما اشتمل عليه ذلك الإنتاج في ذاته من الطرائف ، وبدائع الوصف ، وجوامع الكلم ، وجمال الأسلوب ، وفئة كان للحظ والصدفة ، أو لقيام لفيف من الناس بالدعاية لها ، أثر كبير في تقديمها للمثقفين ، وتقريبها من الناس ، وإقامتها رمزاً للوطن خاص من الأدب ، أو مثالا لطابع مدرسة مخصوصة في الفلسفة ، أو مذهب معين في التفكير . إلى هذه الفئة الثانية ينسب سير توماس مور ؛ فقد كان زعيماً لعصر من العصور في انكلترا أو رمزاً لمشكلة العليا . كان أول شخص عارض في انكلترا جمهورية افلاطون ونسج على منوالها . سمي كتابه « يوتوبيا » فأخرج بذلك للعالم الغربي عالماً ووصفاً ، كثيراً ما أسيء استعماله . يقولون : إن هذه أهداف « يوتوبية » ويعنون بذلك أنها مثل علميات خياليها المرء ولا يستطيع تحقيقها . لقد رسم مور صوراً للمسائل الحديثة كما أنتجها العقل الانكليزي في ظل فلسفة افلاطون . وعلى ضوء مبادئها . وفي الواقع إن المسائل التي أخذت على مور لبّه واستأثرت بتفكيره ، واستغرقت كل ساعات حياته ، لا تكاد تختلف كثيراً عن المسائل التي نزعجنا اليوم ويستعصى علينا إيجاد حل مناسب لها . إن بعضاً من تلك المسائل تكاثر وتزايد باتساع جواهره وانضمام أغراض جديدة اليه ، وتكوّن من ذلك الاتساع وهذا الانضمام مجموعة كبيرة من المشكلات أقضت مضاجع المفكرين والساسة والعلماء اليوم وحيرت أوهامهم .

ويوتوبيا تتألف من كلمتين يونانيتين ، معناهما « ولا في مكان » . وقد كتبت سنة ١٥١٦ ويتبين منها مقدار ما أصاب مؤلفها من الاضطراب وما ساوره من القلق بسبب ذبوع آراء معينة في صلة الدولة بالكنيسة في أيامه . لقد قاوم مور الملك هنرى الثامن في ادّعائه بأنه رأس الكنيسة ، فأدّى ذلك إلى إعدامه في سنة ١٥٣٥ م ؛ وكان لموته رنة حزن وأسى اجتاحت أوروبا بأكملها . لقد ولد مور في سنة ١٤٧٨ م . كان مور عالماً وفقيحاً . وقد تأثر بأبحاث سيرجون كولات ، زعيم علماء عصر النهضة في انكلترا ، وتعشق نظريات وأفكار إيرا زيموس ، العالم الاجتماعي الهولندي . وقد رُسم مور قاضياً لقضاة انكلترا في سنة ١٥٢٩ خلفاً للكاردينال وولزلى .

تظهر لنا من الصورة التي رسمها لمور معاصروه ، ومما وصل إلينا من اعترافاته وأحاديثه ، المقصودة والعرضية ، أنه كان رجلاً ذكياً حادّ الذهن متوقّد القريحة صابراً شامساً على العمل يتعشق النكتة والدعابة ويميل إلى السخرية والتهكم ، واسع الأفق والاطلاع . قلده فقهه وعلمه أرفع المناصب في بلاط مليكه ، ولكن ترفعه عن منادمة الملك خلق في نفسه موجدة على مور كانت السبب في هلاكه آخر الأمر .

يبدو أن مور بدأ حياته واختتمها معتقاً المذهب المحافظ في الدين . كان محيطاً بعبادات عصره ، مُماماً بعتائده ومذاهبه ؛ وقد لعب دوراً جليلاً في حياة بلاده العامة . إن اهتمام الناس بدراسته لا ينصبُّ على شؤونه الطبيعية التي يشارك فيها مور بقية أبناء عصره ، ولكنه يتمركز فيما بدا في مور وظهر عليه من الشك في كل ما انطوت عليه الظواهر الاجتماعية من حقائق مريرة نبهه إلى وجودها وأثار كوامن نفسه عليها ما درسه في تراث افلاطون ، فقام بتدوينها والبحث فيها . وقد يتساءل المرء ما إذا كان هذا الشك لا يتفق مع الطباع الانسانية ؟ وقد يتساءل كذلك عما إذا كان كبار

الساسة وكبار علماء الأديان وكبار رجال الإدارة لم ينتقدوا في قرارات نفوسهم المبادئ والأصول والأركان التي قامت عليها أعمالهم؟ غير أننا نجد بينهم نسبة ضئيلة جاءت علناً وصراحة باعترافات تشبه من قريب أو بعيد ما خلفه لنا سير توماس مور. كان مور كاثوليكياً متعصباً لمذهبه، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يُصوّر للناس مُجتمِعاً لا يدين بالمسيحية، ومع هذا انتشرت بين أفراد مبادئ الحكمة وتأصلت فيهم أسس الفضيلة. والواقع أن مور كان متمسكاً من الوجهة العملية بتعاليم المسيحية، ولكنه خرج فيما كتبه، عن عمد وتصميم، على تلك التعاليم، وقال مطمئناً بوجوب بناء مجتمع على أساس التسامح الديني المطلق^١.

وكتاب سير توماس مور (يوتوبيا) هو من الكتب الخالدة على الأزمان؛ وقد أحيى به مذهب أفلاطون؛ وأوجد في الوقت نفسه مذهباً جديداً بسطه أمام الأجيال القادمة. ولكن الكتاب، مع كل ما فيه من المسائل التي فيها مجال للقوة، ما يزال لغزاً أمام القراء يُفسّره الناس ويحلون رموزه كما يشاءون وتشاء لهم مشاربهم ونزعاتهم المتغيرة. ولسنا نقصد إلى أن نقول إن هناك إبهاماً وغموضاً في الآراء التي سطرها هذه القصة الخيالية على لسان الذين اشتركوا في الحوار، ولا سيما في نقد حالة انكلترا في القرن السادس عشر مما تفرد به الرحالة الوهمي (رفائيل هيثلودي). فلم يكن هناك إبهام أو غموض ما. فقد أبان رفائيل بنقده اللاذع حالة البلاد، وتجشّم أعباء بيان عيوب العالم ونقائصه، ووضع صورة خلافة للعالم يخلو من العيوب والنقائص التي اشتكى منها. على أنه قد يخلو للمرء أن يبحث ويستقصي قبل أن يقرر هل الغاية التي يرمى إليها

كتاب (يوتوبيا) هي انعكاس للصورة التي ارتسمت في نفس مور عندما سطر الكتاب . والواقع أن من يكتب رواية أو يصنف حواراً لا يمكن أن يُعتبر مسؤولاً عن جميع الآراء والأفكار التي تنطق بها رسائله على لسان جميع دُمى الرواية . وفي حالتنا الحاضرة نجد أن هناك ثلاثة أشخاص روائيين في الكتاب ؛ هم مور نفسه ، وپطرس جايلز ، كاتب مدينة أنترب - وهو الذي أنيط به نقد شؤون الحياة في انكلترا خاصة ، وفي أوربا بوجه عام ، والمقرر عن جزيرة يوتوبيا المباركة . والشخص الثالث هو رفائيل - وقد اختص بالإفصاح عن كل المسائل الجوهرية في الكتاب . بينما لم يكن الاثنان الآخران سوى مستمعين سهلي القياد يوافقان المتحدث على كل ما يقول . وقد يكون من الحق أن نقول هنـا إن مور قد نسب إلى نفسه صراحة دفاعه المجيد عن الملكية الفردية أمام تمجيد الشيوعية وملاحظته في الصفحة الأخيرة من الكتاب وهي تحذير صريح يوجه للقارى حيث قال : « وإننى في الوقت نفسه أصرّح أنى لا أستطيع أن أوافق على كل ما قاله (رفائيل) » . هل يوتوبيا مجموعة حكم لا يليق بالناس أن ينظروا إليها نظرة جديّة ، أم أنها في الواقع قطعة أدبية أطلق كاتبها لنفسه عنان الخيال ومألاها بأوتاد كثيرة يرتكز عليها في نقد شتى المواضيع ؟ أم أن تصاؤل رفائيل وتجوّاله في ميدان النقد كان صورة عكسية لما ارتسم في نفس مور من الأمور المختلفة ، فقد ضاق ذرعاً بالحياة بين أقرانه ومعاصريه فاتخذ من الحوار الخيالى الذى اخترعه منفذاً يقذف منه بحممه المتأججة الى العالم ثم يبرأ الى الناس من كل مسؤولية تنتج عن أقوال ومحاورات أشخاص روايته ؟ ذلك لأن يوتوبيا - ولا يضير هذا الرأى أن نجيب على هذه الأسئلة بالإيجاب أو النفي - كتاب عجيب بالنسبة الى سير توماس مور .

لقد ألف مور الكتاب في سنتي ١٥١٥ - ١٥١٦ م عندما كان في السابعة والثلاثين من عمره ، وكان قد تدرّج في سلم الرقيّ في خدمة دولته إلى أن بلغ أرفع المناصب . وصفوة القول أنه ليس من المؤلف أو المتعارف أن يقوم رجال الدولة وهم ما يزالون في الخدمة الفعالة ، فيدينون أنواع الظلم ، وأصناف العذاب ، وآلوان الجور والطغيان ، التي يتقاسى ويلاها مواطنوهم ؛ حتى ولو كان بيانهم على لسان شخص خيالي كرفائيل هيثلودي . ولعل مسألة أخرى توضح هذه الحال . لقد كان الواجب أن تكون يوتوبيا من أعظم كتب الأدب الكلاسيكي الانكليزي . بيد أنها كتبت باللاتينية وطُبعت في خارج إنكلترا سنة ١٥١٦ م ولم تظهر منها ترجمة انكليزية قبل سنة ١٥٥١ بعد أن أصبحت ترجماتها الألمانية والايطالية والافرنسية في متناول الأيدي . ولو سلمنا أن مور كان يقصد إلى أن يزود العالم بشحنة من المواد الملتهبة والنظريات الثورية ، فقد كانت نيته تتجه لا محالة الى توجيه تلك الشحنة لا إلى جميع الناس ، وإنما اقتصر في توجيهها « إلى الذين يحذقون اللغة اللاتينية » . إن ابتكار وكتابة « اليوتوبيات » هو من صفات الضعف الملازمة للجنس البشري ، ولولا أن كاتب « يوتوبيا » التي اغترف من بحرها جميع الذين حاكوها في التفكير والكتابة كان من أشرف وأشجع الناس ، لحقّ لنا أن نقول إن تلك الكتب « هي سبيل الجبان الى الهروب من مجابهة الحقيقة » . وقد يقال إن القصص المبهجة (على اعتبار يوتوبيا قصة مبهجة) تتخلل محيطاً للقراءة أوسع من غيرها ، ذلك بالقياس الى « الاساطير » التي يتناقلها العامة جيلا بعد جيل ، فيرويها الساذج من الناس الى السذّج منهم ونحن على يقين بأن الحقائق التي تدس في القصص تصل الى كل مكان حتى أنها تدخل الى أحقر الأبواب . وقد يكون من الصواب هنا أن نشير إلى وضع مور الخاص نفسه : فقد كان يعيش في ظلال حكم هنري الثامن ، وكان من الخطر البالغ عليه أن يبرز آراءه سافرة ، فوجد من حسن السياسة

وبالغ التحفظ أن يعتمد إلى سترها بقناع من الرواية والخيال . بيد أن الضعف الملازم لكل (يوتوبيا) هو صعوبة إيجاد سبيل لتحويل هذا العالم القاسد إلى عالم صحيح . إن كتاب اليوتوبيات ينتقلون بك من هذا الوجود ، إلى جزيرة في بحرٍ سحريٍّ أو إلى كوكب آخر ؛ أو أنهم ينتقلون بك إلى المستقبل البعيد ؛ ومن هناك يطلون على الماضي البعيد فيرون أيامه المظلمة ، أو أنهم قد يهبطون بك إلى جوف الأرض إن رأوا السلامة في ذلك . ومهما تكن الحال فإنهم يعرضون على القارىء أن يشاهد مجتمعاً إنسانياً تسوده الحكمة ويعيش أبناؤه سعداء لأجل طويلة . ولكن الصعوبة التي تمثل أمامنا هي الصعوبات الإدارية للتنقل بين الحالين . إن يوتوبيا هي جنة سماوية . ومن السهل علينا أن نعيش فيها عيشة راضية راغدة متى دخلناها . ولكن الصعوبة هي في السيل إلى بلوغها والدخول فيها .

وئمة مسألة أخرى تتعلق باليوتوبيات بوجه عام ؛ هي في الواقع أيسر مما تبدو لأول وهلة . ذلك أننا إذا نظرنا إلى مؤلفي هذه الكتب نجدهم رجالاً لهم منزلة رفيعة ومكانة مرموقة في عالم الفكر ؛ يضعون منهاجاً لدولة سعيدة ويصفونها لناسا ويكشفون عن إدارة المؤسسات الفاضلة فيها ؛ وفي كل الأحوال يؤكد هؤلاء الكتاب لنا أنه لم يكن يوماً ما على الأرض من الناس من شملتهم السعادة جميعاً وعاشوا في نعيم مقيم كسكان تلك المدن الفاضلة . ومع ذلك فأننا لم نطلع بعد على يوتوبيا وضعها مؤلفها على وجه يحسب إلى إنسان عاقل أن يعيش فيها إذا قيض له أن يدخلها ويخرج منها . والواقع أنه على الرغم من وفرة وسائل الراحة ، وعلى الرغم من نقص ساعات العمل ، فليست هنالك يوتوبيا واحدة ليست الحياة فيها - على ما وصفوها لنا - متعبة مكدره متبذلة خاسرة . وليست علة ذلك كونها بعيدة المتناول : فإن الحياة في يوتوبيا قد أصبحت في حالة ثابتة على وتيرة واحدة

عملة وطبقاً لمنهاج واحد ثابت لا يتغير . فما من حادث يقع أو حدث يتم ، وليس هناك أحد من السكان يخالف أحداً ويختلف معه في الرأي . أما الحكومة ، ومهما يكون شكلها ، فقوامها رجال حكماء يسرون بها في الطريق المستقيم فتستحق الشكر دائماً ولا يوجد من ينتقدها أبداً ، « فالحياة لون وحرارة ونور ، وجهاد متواصل لتوفير هذه الطيبات دائماً » . وقد بلغ الانسان في يوتوپيا درجة الكمال ولم يبق أمامه من الأغراض ما يجاهد من أجله .

ولكن ليس هنالك من العوامل في يوتوپيا ما يدفع الى الحياة والحركة . وعلى هذا فالنتيجة أن الحياة تصبح راكدة مضمجرة . يقول رفائيل في وصفه ليوتوپيا ببساطة تعبر عن سذاجته :

« إن من يعرف لمحدى مدنيهم ، يعرف ، في الواقع ، جميع تلك المدن » . إن هذا القول دون الحقيقة بكثير . فان من يعرف أحد أبناء يوتوپيا يعرف جميع سكانها ؛ وقد يتجاوز المرء الحدّ ويقول إن من يعرف يوتوپيا واحدة يعرف جميع المدن الفاضلة . فلم يقع حادث ما ، ولن يقع حادث ما في أي منها .

ومع هذا وعلى الرغم من أن وصف الحياة في المدن الفاضلة - ورغد العيش الاجتماعي فيها - قد يجعل الحياة ناعمة راضية مسلية ليس إلا ، وهي على هذا الوصف لا تستحق شيئاً من الإعجاب ، إلا أن الأفكار التي أوحى بهذا الحلم اللذيذ تستحق كل عناية وتقدير . وأصدق ما ينطبق عليه هذا الرأي هو يوتوپيا نفسها . لقد خلدت يوتوپيا على الأيام لأنها وصفت الجنة (عماروت) الواقعة على نهر (أنيدر) وصفاً جميلاً خلافاً ، أو لأنها أظهرت جميع سكانها بمظهر الحكماء ؛ وإنما خلدت لأنها ، زيادة على كل ذلك ، أظهرت شرور الحياة الاجتماعية وظلم الأحكام في أيامها من جهة ، ولأنها

كانت من الأسباب التي نهبت الأفكار وهيأت النفوس للبحث في مساوي حكم البلاد فيما بعد من الجهة الأخرى .

تقع يوتوبيا في « كتابين » ، والكتاب الأول منهما ، مع أنه على الغالب يختص ببحث الأحوال السيئة التي كانت سائدة في إنكلترا خلال الحقبة من الزمن التي تقع سنة ١٥١٦ خلالها ، فإن نقده اللاذع ينصبُّ ، علاوة على إنكلترا ، على الأمراء والزعماة الذين كانوا يحكمون غربي أوروبا . أما الكتاب الثاني فينحصر موضوعه بالمقابلة بحزيرة يوتوبيا السعيدة التي أنجتها تدابير ملكها السابق (يوتوبوس) وإدارته الحكيمة من الشرور والآلام التي ما نزال نقاسي مثل ويلاتها . ونشاهد في هذا الكتاب مور وبطرس جايلز يجلسان على ضفة خضراء في إحدى جنات أنتيرب ، وهما يصغيان إلى أحاديث الرحالة الفيلسوف رفائيل هيثلودي . ويتمنيان أن يدخل رجل بمثل مقدرة رفائيل وخبرته التامة في شؤون الحياة الحقيقية ، في خدمة أحد الأمراء ؛ ولكن رفائيل يقرر أنه لا يصلح لخدمة أمراء هذا العالم الذين هم بوجه عام « يعملون لأن يحرزوا ويحوزوا ، بالحق أو الباطل ، مما لك جديدة ، دون أن يعملوا على إصلاح أساليب الحكم وتحسينها في الممالك التي هي تحت إمرتهم وخاضعة لسلطانهم »^١ . ونجد رفائيل ، وهو برتغالي المولد عالماً بشؤون وأحوال إنكلترا في أيامه وخمير آبها . لقد كان الزمان عصر فقر وتشرد وسلب ونهب ؛ وكان من بين العوامل التي أعقبت هذا الوضع إنشاء الإقطاعات الواسعة المسورة وجعلها أراضى محفوظة محظوراً دخول الماشية والأنعام إليها . « هنالك سبب آخر للسرقة وهو - على ما أعتقد - مختص بكم ومقصود عليكم أيها الإنكليز دون غيركم : إن أغنامكم التي اعتادت

أن تنزل وديعة أليفة لا تعرف النهم وتتمنع بالعلف القليل أصبحت اليوم
على ما بلغني - نهمة لا تبقى طعاماً إلا أكلته ، ولا تذر علفاً إلا ابتلعه ،
حتى إنها تأكل الناس أنفسهم . وهي تستهلك وتنفق مزارع كاملة
ويوتاً ومدناً بأجمعها . وما عليك لكي تعرف ذلك إلا أن تبحث عن
أقسام المملكة التي تنتج أجود الأصواف وأغلاها ثمناً . في تلك الأصقاع
والبقاع أيها النبلاء ، وأيها الأفاضل : حقاً إنكم أنتم ومثلكم بعض رؤساء
الديار ، وهم - ولا شك - رجال مقدسون ، لم يرضوا بالإيراد السنوي
والأرباح التي كانت تنساب إلى آبائهم الأولين وأسلافهم من أراضيهم ،
وبالأمن والسعادة ، بل أقلقوا بال الشعب ونقصوا عيشه ، فلم يتركوا أرضاً
تستغل للزراعة ، وإنما أفتطمروها وسوروها وجعلوها مراعى محفوظة : وقد
خربوا مدناً قائمة ، وهدموا بنايات من أركانها ، ولم يدعوا حائطاً يعلو سطح
الأرض ، اللهم إلا الكنائس التي اتخذوا منها زرائب للأغنام . ومع أنكم
فقدتم مساحات شاسعة من الأراضي للغابات ومفارز الصيد والحدائق
العامية ، نشاهد هؤلاء الرجال المقدسين يحولون جميع المساكن وجميع
أوقاف الكنيسة إلى أطلال نهبها البلى فأصبحت خراباً يباباً ينقع فيها البوم
ويعشش فيها الغراب . وقد قام كل طاع جشع من جهته فسور في ناحيته
عدة آلاف من الفدادين وجعلها اقطاعاً واحداً خالصاً له من دون الناس .
أما المزارعون وأصحاب الأغنام فقد أخرجوا من ديارهم ، تارة بالخدعة
والحيلة ، وتارة بالضغط والظلم والإكراه ، وطوراً اضطروهم إقلاق الراحة
والأذى إلى بيع أملاكهم بأسعار بخسة دراهم معدودات : وعلى ذلك فقد
أجبرتهم الظروف على النجاة بأنفسهم فقراء منهوكي القوى مهينى الأجنحة
رجالاً ونساء ، أزواجاً وزوجات ، أيتاماً وأرامل ، أمهات تكلى بأطفالهن ،
كثيرى العدد قليلى المؤن والهدد لأن الزراعة تستلزم سواعد كثيرة .
يهجرون بيوتهم التي ألفوها هائمين على وجوههم لا يجدون ملجأ يأوون

إليه . ومع أن أثاثهم وأمتعتهم لا تكاد تساوى شيئاً ، فإن خروجهم من ديارهم بالقوة يحملهم على التخلي عنه بضمن بنس جداً . وبعد أن يهيموا على وجوههم وينفقوا ما بأيديهم من النقود هل يجدون أمامهم سبيلاً للعيش سوى اللجوء إلى ارتكاب السرقات ، وعندها نرى فريقاً منهم يشنقون وفريقاً يجوبون البلاد يتسولون ، ثم يقبض عليهم ويزج بهم في غيابات السجون لأنهم شريرون لا يعملون عملاً ما . والواقع أنهم لا يجدون من يعطيهم عملاً وهم راغبون جداً في العمل ويمقتون البطالة ويمججون حياتها .

وهكذا تُصوّر لنا (يوتوبيا) كيف أن أفاضل الرجال يُرغمون على التسكع في الطرقات مع المجرمين المحترفين ، ويُقدر أن تكون خاتمة مطافهم أن يقتلوا على أعواد المشاق . أما المصدر الثاني الذي ينشأ فيه السارقون ويتكاثرون فهو قصور النبلاء الطفيليين ، لأن هؤلاء الناس لا بد لهم أن يعتمدوا إلى العيش من السؤال والسرقة عندما يفقدون وظائفهم . ولما كان هذا الأمر هو من النخبات المتكررة في يوتوبيا الملازمة لأبحاثها ستدع رفايل هيلودي يتحدثُك عنه :

« تجدون بينكم عدداً كبيراً من الشرفاء هم أكسل من يعاسيب النحل يعيشون عالة على الآخرين ؛ عالة على كدّ فلاحهم وكدحهم ؛ وتجدون هؤلاء السادة ، يأخذهم الغضب ويرتكبون جميع الموبقات في سبيل الحصول على إيرادهم . . . ولا يعيشون وحدهم عاطلين عن العمل كسالى ، بل يجرّون وراءهم ذيو لا طويّلة من الخدم الذين لم يتعلموا قط صنعة أو حرفة يتعيشون منها . وعندما يموت سيد هؤلاء الناس أو يصابون بمرض ما يطرّدون إلى خارج الأبواب . . . وعندما يجوعون لا يجدون لهم مندوحة عن السرقة يتعيشون منها . وماذا تنتظر منهم أن يفعلوا ؟ » .

ويؤدى بنا هذا البحث الى النظر فى شدة قانون العقوبات وصرامته ، كما تظهر من جعل الاعدام عقوبة لكل سارق مهما تكن ظروفه . على أن رفائيل هيثلودى قد رفع عقيرته فى حديث له ضد عقوبة الاعدام بوجه عام . وقد اعتبرها مخالفة للقانون الإلهى واقتتاتاً عليه . « فقد نهانا الله عن القتل . أنستعمل قتل الانسان من أجل درهمات قليلة ؟ » . لقد كان سوء الحكم فى كل مكان ، وجشع الأمراء والحكام الذى لا حد له ، وإهمال هؤلاء شئون رعاياهم الحيوية ، وسوء تصرف الأغنياء العاطلين عن كل عمل ، وأعمال الشقاوة والإجرام التى يقوم بها المتلصصون ، وانتشار أعمال الساب والنهب ، وشنق الناس دون ما تمييز ، ومخالفة تعاليم الدين . كل هذه العوامل مجتمعة . التى سادت العالم بوجه عام ، ولازمت الحياة الاجتماعية فى انكلترا آنئذ ، وهى العوامل نفسها التى ألهمت رفائيل هيثلودى أبحاثه فى (يوتوپيا) . وبعد انقضاء فترة من الزمن خصّصت لتناول طعام الغداء جلس مستمتعوه مرة أخرى على الضفة الخضراء ذاتها ، فبدأ رفائيل يبسط أفكاره ويفصّل آراءه فى الكتاب الثانى .

لعلّ من الصواب لنا أن نبحث هنا فى الحياة فى (يوتوپيا) بحثاً مقتضباً لا يشوبه التطويل والاسهاب ، إلا إذا اقتضت شؤون السكان الخاصة الإفاضة فى تصوير مبادئها . إن (يوتوپيا) هى جزيرة شيعية لم يعد فيها مكان للملكية الفردية وحقوقها . أما من جهة السلوك الخلقى فيظهر أن السكان هم من أتباع بنتام المثقفين لأنهم يعتقدون « باللذة » مع تحفظ واحد فقط : ذلك أنه يجب أن لا تحجب اللذة القليلة لذة أكبر منها ، وأنه يجب على الانسان أن لا يتمتع بلذة يعقبها أذى وضرر كبير . والظاهر أنهم كانوا

ملمّين بنظريات السلطنة واللام^١ (Felicific Calculus) . أما في الشؤون الدينية « فقد كان رجال الدين على جانب عظيم من الصلاح ، ولذلك فقد كان عددهم قليلا . و (يوتوپيا) بلاد قوانينها تكاد تعد على الأصابع وليس فيها محامون . همهم إخفاء الحقائق وإفساد القانون . ومن خواص سكانها الأخرى أنهم « يحبون راحتهم » و « يبتلعون كثيرا بالمخدرات » .

إن الحياة في يوتوپيا خاضعة لحكم شديد مطلق ؛ وكل أمر من شؤونها يجب أن يكون طبقاً لأنموذج معين يقتدون به ويقلدونه . وجميع المدين مرقمة وتقع على مسافات متساوية بعضها من بعض . « وفي الجزيرة أربع وخمسون مدينة كبيرة يجمعها لسان واحد ، ويصدر سكانها عن عادات وتقاليد واحدة ، ويخضعون لأحكام قانون واحد^٢ . وعدد الأسر التي تسكن كل مدينة ، وعدد أفراد كل أسرة تقيم في الريف أو في المدينة مربوط بقدر معلوم : « ولا تجد داراً ومزرعة يقطنها عدد من الناس يقل عن الأربعين شخصاً ، رجالاً ونساء ، بالإضافة إلى مملوكين اثنين من الرقيق . وهؤلاء جميعاً يخضعون لإدارة رب الدار وزوجته ، وهما شيخان حكيمان وحازمان . ولكل ثلاثين مزرعة أو ثلاثين داراً حاكم عام هو في الواقع أمين عام^٣ . « ولا يجوز أن يزيد عدد الأسر في كل مدينة عن ستة آلاف ، ويجب أن يكون في كل أسرة في المدن عدد لا يقل عن عشرة أولاد ولا يزيد عن ستة عشر ولداً أعمارهم في الرابعة عشرة أو تقاربها^٤ . ولهم قضائهم — حكاهم ونقباؤهم — إذا كان في هذه المعلومات فائدة ترجى . ولهم أمير

ومجلس عام لتصرف أمورهم . ولكن المواطنين العاديين - شأنهم في ذلك شأن رعايا كل الدول ذات الحكم المطلق التي يسودها شكل الحكم الاستبدادي - ممنوعون من التدخل في شؤون الدولة . « والحكم بالموت ينتظر كل من يجتمع ويتشاور في شؤون الدولة خارج دار المجلس أو خارج دار جمعية الشعب العامة . وهم يقولون إن هذا القانون قد وضع للحيلولة دون تواطىء الأمير والنقباء وتآمرهم على ظلم الشعب وإخضاعه لرغباتهم بالقوة . ولذلك فإن المشروعات الجارية أمامه يطرحها النقباء بادئ الأمر على بساط البحث أمام أسريهم في دار جمعية الشعب . وبعد أن تشاور الأسرى فيها تعلن قرارها إلى المجلس . وفي بعض الأحيان ترفع المسألة بكاملها إلى مجلس الجزيرة العام ^١ . وينتخب النقباء - وعددهم مئتان - أميراً للمدينة . وهم يقسمون أولاً على انتخاب من يعتقدون فيه الكفاءة والصلاح ، ثم ينتخبون بطريق الاقتراع السري . ويجب أن يقع الانتخاب على واحد من الأربعة الأشخاص الذين يعينهم الشعب . ويستمر الأمير في منصبه طوال أيام حياته ، إلا أن يُخلع أو يعزل لظلمه الشعب . أما النقباء فيجسد انتخابهم سنوياً . ويحضر النقباء مع الأمير إلى دار المجلس مرة كل ثلاثة أيام إلا إذا اقتضت المصلحة حضورهم في فترات أخرى أقصر من ذلك ^٢ . وتحمل (يوتويا) حملات شديدة على التجمع في الحانات والتنقل في شجون الأحاديث هناك ؛ فلا يتخذ من الجلوس فيها ستاراً للبطالة والكسل . « لا توجد في الجزيرة حانات للخمر والمزور ، ولا توجد فيها مطابخ ومطاعم عامة ، وليس فيها أماكن معدة للفسق والفجور ، وأيضاً ليس فيها أماكن

لجميعات الفساد^١ . يمارس كل فرد من السكان صناعتين ، الزراعة -
وتعملها واجب على كل رجل وامرأة في الجزيرة - وصناعة أخرى كنسج
الثياب من الصوف والكتان وأعمال البناء والحداة والتجارة وما إلى
ذلك^٢ . أما لباسهم فهو من شكل ونوع متماثل يلبسه جميع سكان الجزيرة
ولا اختلاف فيه إلا ما يميز الرجل من المرأة ويميز المتزوج من الأعزب ...
وكل أسرة تحيك ثيابها بأيديها . وهم يلبسون للعمل أردية مصنوعة من
الجلد ويغطونها بعد ساعات العمل بأقبية مصنوعة من الصوف تلبس
بلونها الطبيعي في جميع أنحاء الجزيرة^٣ . ولا تتغير أزياء الملابس
أبداً . وقد قسموا اليوم في (يوتوبيا) إلى أربع وعشرين ساعة خصصوا
منها ستاً للعمل ، ثلاثاً قبل الظهر يقضونها ويتوجهون مباشرة لتناول الغداء ،
وبعد ذلك يستريحون ساعتين ويعملون ثلاث ساعات أخرى ثم يتوجهون
إلى موائد العشاء . ويذهبون إلى النوم في الساعة الثامنة مساءً ، فينامون ثمانى
ساعات . ولكل امرئ أن يقضى أوقات فراغه - أى الأوقات التى تتخلل
ساعات العمل والنوم والطعام - كما يشتهى ويختار ، شريطة أن يستمع الى
بعض المحاضرات فى مختلف العلوم يومياً فى الصباح ، وأن لا يشغل نفسه
فى الفساد والكسل^٤ . ويجب على كل إنسان أن يعمل ويشغل ، ما عدا فئة
قليلة من السكان انقطعت للعلم وعكفت عليه ، فأذن لها الشعب بذلك
وأعفاها من العمل ما دامت تتعلم ، وإذا لم تثبت كفاءتها وتظهر حسن
استعدادها سحبت منها الإجازة وأعيدت الى العمل . وعلى النقيض من
هذا الأمر إذا تبين أن أحد العمال يقضى أوقات فراغه فى التعلم ويستفيد من
ذلك لفرط ذكائه وفطنته وجده ، عندئذ ينقل من الحرف اليدوية إلى
صف جماعة العلماء . وينتخب من بين هذه الجماعة السفراء ورجال الدين

والنقباء والأمير نفسه^١ . وقد جاءت في الكتاب عبارة بارزة ردّتها
الكتب في الأزمان التالية لتاريخ الكتاب ، تلك هي المتصلة بالفكرة القائلة
بأن ساعات العمل الطويلة تنتج من وجود جيش كبير من القاعدين والكسالى
والعاطلين عن العمل ؛ ولو أن كل فرد من السكان يقوم بقسطه من العمل
باخلاص ومهارة وذمة لوزّع العمل توزيعاً صحيحاً ، ولخفّ العبء الذي
يصبى كل عامل ، ولأصبحت ساعات قصيرة من العمل تكفي حاجة الناس
جميعاً . وليس تخصيص ست ساعات من العمل يومياً بالشئ اليسير ، بل إننا
نجد أن هذا الزمن هو أكثر مما يجب تخصيصه إذا ما نظرنا إلى العديد
الأجزل من أبناء الأمم الأخرى القاعدين عن العمل :

« إننا نجد أن النساء بوجه عام يقمن بقسط قليل من الأعمال مع أن
عددهن يبلغ نصف بنى البشر ؛ وإذا وجد بين النساء بعض المجتهديات
العاملات فذلك لأن أزواجهن هم من القاعدين . ثم علينا أن نسقط من
الحساب جماعة الرهبان العاطلين عن كل عمل ، ومن هؤلاء من يُدعون
رجال الدين ؛ أضف إلى هؤلاء جميع الأغنياء ، ولا سيما أولئك الذين
يملكون إقطاعات من الأراضى واسعة ، وهم الذين يُسمون الأشراف
والأفاضل ، مع أسرهم المؤلفة من أشخاص عاطلين عن الأعمال ، وهم
موجودون للنظر لا للاستعمال ؛ أضف إلى كل هؤلاء جميع الأقوياء
الشديدين من المتسولين ، الذين يجوبون البلاد متظاهرين بأنهم من الزمنى ،
ليكون لهم عذر ينتحلونه للتسول . وفي نهاية الحساب تجد أن عدد الناس
الذين ينتفع بنو البشر بأعمالهم هو أقل كثيراً مما كنت تظن^٢ . »

وعلاوة على ما تقدم فإن عدداً قليلاً من العمال الذين يشتغلون ،

يقومون بأعمال مفيدة لحياة بنى الانسان : « لأننا ونحن نقيس جميع الأشياء بنسبتها الى النقود ، ننشئ صناعات كثيرة فاسدة لانفع لها ، وهى على النقيض من ذلك ، تؤثّر الثورة وتنتشر البذخ والترف بين الناس ^١ . لقد كانت هذه الفكرة عزيزة على قاب فوريير Fourier فيما تلا ذلك من الأزمان ، فقد سرّه وأبهجه أن يُصنّف جميع طبقات « الطفيليين » من بنى الانسان . وفوق كل ما ذكر ، فهناك مسألة هامة رددتها جميع كتب «المدن الفاضلة» ، هى أن من يحيا حياة بسيطة يلقي بحسن الجزاء . لأن كمية العمل تنقص إذا تجنب جميع الناس اقتناء الكماليات ونبذوا تغيير الأزياء . وهكذا إذا استخدم جميع العمال فى عمل مفيد ، وما داموا يقنعون بالضرورى للحياة المتزنة المركزة فسوف تُوفّر الأشياء والحاجات بكثرة لديهم ^٢ . ويقصد مور (أورفايل هيثلودى) أن يضع من كل هذا نظرية اقتصادية خاصة هى : إنه ينتج من ضم العمل المشترك ، إلى الحياة البسيطة ، والآلات والأدوات المناسبة الفعالة : أن تنخفض ساعات العمل الى حد كبير جدا . وقد علق الكتاب الذين جاموا بعد زمن مور على هذه النظرية وقالوا بإمكان تطبيقها .

لقد نظمت الحياة فى داخل (يوتوبيا) على أسس شيوعية : تجلب الميرة إلى الأسواق الاربع الرئيسية فى كل مدينة ، ومن هناك توزع مجاناً على الوجه التالى : أولاً تؤخذ منها حاجة المستشفيات ؛ ثانياً تؤخذ منها حاجة الموائد العامة ؛ ثالثاً يعطى الفائض الى كل من يرغب فى أن يمتار . غير أنهم فى الواقع يأكلون جميعاً على الموائد العامة لأنه لا يقبل شخص ما إذا لم يكن لديه مبرر معقول أو عذر مقبول.. أن يأكل فى بيته لامن

السخرية وسخف العقل أن يحشم المرء نفسه متاعب تهيشة طعام في بيته ما
تيسر له أن يتناول طعاماً فاخراً شهياً على الموائد العامة^١ . وقد قرأنا في
صفحة أخرى من الكتاب عبارة هي غاية في التشاؤم لتعلقها بحجز الحرية
« لقد ألزم في (يوتوپيا) كلُّ إنسان طائرته في عنقه ، فحجزت حريرته
من جميع الوجوه^٢ . وكل مواد المسرة وحاجات الحياة يحصل عليها الناس
في الجزيرة مجاناً بلا ثمن أو مقايضة أو رهن . ذلك لأنه لا حاجة لتحتسب
حبس أى شئ عن الناس ؛ فكل الأشياء متوفرة بكثرة ولا يخشى أن ينضب
معينها ، لأن كل ما يستعمله الناس منها لا يتعدى غيضاً من فيض ، اللهم
إلا إذا تهافت الناس على جمع ما يزيد عن حاجاتهم ، ولا يعقل أن يفعل
الناس ذلك ويجمعون أشياء موجودة بكثرة . والواقع أننا نجد في جميع
ضروب الحياة أن المخلوقات ، إما لخوفها من فقدان الحاجات في المستقبل
تعتمد إلى جمع الأشياء بالنهب والسلب ؛ وإما للتباهى بتكديس أشياء عندها
أكثر من غيرها . وهذه الشرور غير موجودة في يوتوپيا^٣ . »

وتسبق كل غداء وعشاء محاضرة في الأخلاق « فيقرأون شيئاً يتعلق
بالسلوك الحسن والفضيلة . ولكنهم لا يطيلون لئلا يملَّ الحضور ذلك .
ويبدأ الكحول في الحديث ثم تتاح الفرصة للشبان ليظهروا ذكاءهم
وكفاءاتهم^٤ . وهذه المحاضرات والأحاديث في (يوتوپيا) هي من الأسباب
التي تنفر من الأكل في البيوت الخاصة .

وفي الجزيرة تجارة : ولكنها تقوم على أركان غريبة ووفقاً لأصول
ومبادئ عجيبه خاصة (يوتوپيا) . ولها نتائج لم يألفها التجار في العالم .
يحرص أهل يوتوپيا على أن تتوفر فيها المؤن والحاجات الضرورية قبل

السماح بتصدير أية كمية من محصولاتها . ويشترطون أن لا يقل المخزون في الجزيرة من أجل الاستهلاك المحلي ، عن المقادير التي تحتاج إليها البلاد مدة سنتين كاملتين . ثم يسمحون بالتصدير الى الخارج ، تارة دون ما ثمن أو مقابل ؛ وطوراً في مقابل كميات هائلة من الذهب والفضة . وإليك ما ورد في الكتاب عن التجارة :

« ولما كان هذا هو أسلوب الشعب في المعيشة والتجارة ، كان بالضرورة محتوماً أن يحتفظوا بكميات هائلة من المواد والسلع . ولما كان أفراد الشعب يشعرون بأنهم جميعاً شركاء في تلك المواد لا يوجد بينهم من ينعم بالفقر أو يوصف بالغنى . وعندما يجتمعون في مجلس الأمة (الذي يعقد سنوياً في عماروت — وهي العاصمة) ويحضره ثلاثة مندوبين عن كل مدينة ، يطرح أمام المجلس الفائض من المحصولات في بعض المدن من جهة ، والعجز في محاصيل بعض المدن من الجهة الأخرى . ثم يحوّل بعض الفائض إلى المدن التي هي بحاجة إليه مجاناً وبدون أى مقابل ما . وعلى هذا الوجه تعتبر الجزيرة بكاملها أسرة واحدة أو داراً واحدة . غير أنهم بعد ما يحتفظون بكميات من المحصولات تكفي الجزيرة كلها (وهم لا يعتبرون أن المحصولات تكفي البلاد إلا إذا احتفظوا بكميات تكفيهم مدة سنتين على الأقل) لأنهم لا يستطيعون التثبت من جودة محصول سنتهم الثانية ، يصدّرون من المحصولات الزائدة عن حاجتهم كميات كبيرة إلى الخارج . وهم يصدّرون الخبث والعسل والصوف والسكر والخشب والصباغ والفراء الارجوانية والشمع والشحم والجلود والحيوانات الحية . ويوزعون سبع هذه الصادرات مجاناً على فقراء البلاد المستوردة . أما الباقي فيبيعونه بأسعار مناسبة ومخفضة . وفي مقابل هذه البضائع يستوردون إلى بلادهم كميات هائلة من الذهب والفضة ومن الاشياء الأخرى التي يحتاجون إليها ؛ وهي في الواقع ليست سوى الحديد . ونظراً لأنهم ساروا في تجارتهم على هذا

المشوار منذ أجل طويل فقد أصبح لديهم الآن كميات كبيرة من هذه الأشياء تزيد عما يتصوره كل إنسان في مثل تلك الظروف . ولهذا فقد أصبح سيان عندهم الآن أن يبيعوا في مقابل نقدي ؛ أو أن يبيعوا نسيئة على أن يكون الدفع في أجل معين . ولكنهم في حالة الدين لا يعتمدون الافراد وإنما يقبلون ضمان المدينة كلها فتوقع كفالة بالنيابة عن المدينة وبالإضافة إليها . ومتى حلَّ أجل الدفع تجمع المدينة الدين من الافراد وتضعه في صندوق عام وتنتفع به الى أن يطلبه اليوتوبيون . والواقع أن يوتوبيا لا تطالب بالقسط الاكبر من الدين المستحق لها ، لأن المطالبة بهذا الامر (الذي لا يكون رجاءاً لهم ، وإنما هو ربح للآخرين) ليست حقاً ولا معقولة . ولكن اذا أدَّى الحال الى أن يقرض المدينون ذلك المال الى قوم آخرين فعندئذ يطالب اليوتوبيون بما لهم ؛ وبطالبن أيضاً بذلك المال اذا دخلوا في حرب . لان الغاية التي من أجلها يكسبون الذهب والفضة في بلادهم هي الاحتياط للاخطار العظيمة أو الشكبات الطارئة . ولا سيما أنهم يستأجرون الجنود الغرباء ويدفعون أجوراً باهظة لهم ، لأنه خير أن يعرضوا الغرباء لمواجهة الأخطار من أن يطوّحوا بأبتائهم أمامها : وهم يعلمون أن بوسعهم أن يشتروا ويبيعوا حتى أعداءهم ١ .

إن ما اقتبسناه هنا بصدد الذهب والفضة هو في الواقع غاية أصحاب المذهب التجاري (Mercantalist Ideal) في الاقتصاد الذي يرمى إلى جعل البلاد تغص بالذهب . ولكنهم مزجوا بتلك الغاية ازديادهم واحتقارهم للذهب والفضة ولكل مواد التبرُّج والزينة : « إن حماقة الناس وجهلهم هي التي رفعت قيمة الذهب والفضة نظراً لندرة وجودهما في العالم ٢ » . وليس

لهذين المعدنين منفعة لا يستطيع التجاوز عنها . ولكي لا تخدع قلوب اليوتوبيين ، ويغفروا بعبادة ما يسمى بالمعادن الثمينة « فان الذهب يستخدم لصنع الأواني البيتية كالقدور والآباريق التي تستعمل على الموائد العامة وفي البيوت الخاصة ، ويصنعون من الذهب أيضاً السلاسل والاعمال التي يرتبطون بها عماليكهم . وإذا أرادوا التشهير بأحد البسوة في أذنيه أقراطاً ذهبية وفي أصابعه خواتم ذهبية وفي عنقه سلاسل ذهبية وربطوا رأسه بعصابة من ذهب » .

وإننا نقع في هذا الخيال المسمى (يوتوبيا) على أمرين يسيئان إلى شعور الحضارة الحديثة : الأول أن اليوتوبيين لا يدخلون الحرب انتصاراً لمبادئ قوية أو إحقاقاً لحقوق ثابتة صحيحة .

وهذا لا يبرؤهم من تهمة الاستعمار : إذا زاد عدد سكان الجزيرة عن الحد الذي يسمح لكل إنسان أن يتمتع بحياة لينية ناعمة ، فعندئذ يرسل اليوتوبيون مستعمرين إلى المناطق المجاورة لهم « فيختارون من كل مدينة عدداً من المواطنين و يقيمون لهم مدينة جديدة وفقاً لشرائعهم على أرض موات خربة لا يقيم فيها أحد ، ويضمّون إليهم بعضاً من سكان تلك المناطق .. إذا اختاروا أن يسكنوهم وينضموا اليهم ... وإذا رفض أولئك السكان الانضمام اليهم والعيش معهم ، فعندئذ يؤمرون بالخروج من الحدود التي رسمها اليوتوبيون لأنفسهم ؛ وإذا قاوم هؤلاء وثاروا يعلن اليوتوبيون الحرب عليهم . لأنهم يعتبرون أن أعدل أسباب الحرب أن تمنع أمة أمة أخرى من إحراز جزء من الأرض لا تفلاحها ولا تستفيد منها وإنما تتركها خراباً يباباً ، لأن لكل إنسان حسب منطوق القانون الطبيعي حقا في جزء

من الأرض الخراب يصلحها ويستغلها لإعالتة وإغاثته ١ .

هذه هي نظرية (مجال الحياة Lebensraum) سافرة عارية . ومن الطليح حقاً أن نرى القانون الطبيعي يُقَحِّمُ هنا ، ويقحم بصورة منطقية فيما يتعلق بحقوق جميع سكان العالم إجمالاً في جميع أراضي العالم إجمالاً وليس فقط في الحقوق الوطنية الفردية التي يدّعيها أبناء الوطن الواحد في أراضيهم حقوق الافرنسيين مثلاً في أراضي فرنسا . « ويحارب اليوتوبيون — علاوة على ما تقدم — من أجل غايات ثلاث : يحاربون من أجل حماية وطنهم من العدو الأجنبي ، ويدخلون الحرب لمساعدة أصدقائهم وحلفائهم في إخراج العدو الأجنبي من أوطانهم ؛ ويحاربون لكي ينقذوا من الاستعباد والظلم شعباً مضطهداً ومظلوماً ٢ » . وفي حالة الحرب يخارب اليوتوبيون بشجاعة عظيمة ولسكنهم يفضلون أن يستأجروا بالمال جنوداً مرتزقة يخوضون غمار الحرب إلى جانبهم « لأنه خير أن تعرض الغرباء للخطر الداهم من أن تطوح بمواطنيك وتقذف بهم في ساحات الوغى ونار الحرب الموقدة ٣ » . وبوسعك أن تكسب الحرب بالمهارة والخدعة دون اللجوء إلى إراقة الدماء ، لأن أعداد اليوتوبيين كثيراً ما يمكن شراؤهم بالمال أو باغوائهم على الخيانة ليصبحوا عيوناً على أممهم ٤ . وهذا يعني في الواقع تشكيل طابور خامس في بلاد الأعداء يحرضون على قتل أممهم .

والأمر الثاني الذي يسمى إلى شعور الحضارة هو أننا ما نزال — وفقاً لما ورد في يوتوبيا — في عالم الرق . لأنه علاوة على ضرورات الحروب التي تقتضى وجود الرقيق ، فإن نعيم يوتوبيا يستوجب وجود طبقة من الرقيق وظيفتها القيام « بالأشغال الشاقة » ؛ وتقوم هذه بأعمال الجزارين تلك الأعمال التي يعتبرها اليوتوبيون المتأنقون أعمالاً حقيرة . وتقوم أيضاً بكل

الأعمال الكريمة لكي لا يبقى للآخرين سوى الأعمال الناعمة اللينة . وبينها نجد ساعات العمل اليومي لكل يوتوبي لا تتجاوز الست ، نشاهد أن الرقيق يعمل طوال ساعات اليوم ، ويعمل وهو مقيد بالسلاسل والأغلال . والرقيق في يوتوبيا ، طبقة مختلفة الأنواع ؛ منها مجرمو اليوتوبيين أنفسهم المحكوم عليهم ؛ ومنها مجرمو الشعوب الأخرى الذين يجلبهم التجار إمامقابل ثمن معين وإما بدون مقابل . يضاف إلى هذين الصنفين فقراء الشعوب الأخرى الذين يقدون إلى يوتوبيا مفضلين عيش الاستعباد فيها على الحرية في بلاد أخرى وهذه الفئة تعامل معاملة أفضل من معاملة الصنفين الأولين ، وهي تستحق أن تعامل بالحسنى . ويعامل العبد الآبق والعبد الثائر معاملة الوحش ، ويُقتضى عليه بالموت آخر الأمر . إن التوصية بعقوبة الاستعباد في (يوتوبيا) هي في الواقع احتجاج على عقوبة الإعدام التي كانت تنفذ حالاً في كل من يرتكب أتفه الجرائم . ذلك لأن العبد ينفع المجتمع من الوجهة الاقتصادية ، بخلاف المجرم الذي ينفذ فيه حكم الإعدام . إلا أن ثمة عيباً يلزم (يوتوبيا) وهو وجوب وجود طبقة من الرقيق تقوم بالأشغال الشاقة .

ولقائل أن يقول إن هذا هو ضرب من القصص الخيالي ليس إلا ؛ ولقائل آخر أيضاً أن يقول إن هذا سخيف مضحك ، وإن ذاك غريب مستحيل ؛ والواقع أن هذه الأقوال صحيحة ؛ واسكن علينا أن نذكر في هذا الصدد أن مور كان أحد أولئك التعمساء في الوجود الذين صُنع هزلهم بالجد والوقار ، وشاب جدّهم دعايةً انقضت عليه من كامن نفوسهم ؛ هؤلاء الناس تعمساء حقاً لأن المجتمع لن يفهمهم . وأحسن حظاً منهم أولئك الذين يصرون عند هزلهم بأنهم يهزلون ، ويقولون عند جدّهم إنهم يجدّون . لقد كان مور من أصحاب الخيال الذين يبنون القصور في الهواء . ولسنا ملزمين بأن نأخذ بخرافية كل ما كتبه . ولكن لو تسنى لنا أن ننفذ إلى سريره ونتفرّس في عينيه ونقرأ ما أخفى في نفسه ، عند ما كتب أو فكر في بعض فقرات كتابه ،

لفهمناه على حقيقته ولعرفنا ما قصد اليه من ذلك الكتاب . ولكننا نجد الأقل من الخيال يُغشَّى المواضيع الجوهرية التي يطرُقها رفايل هيثلودى عند ما يتصدَّى ، وهو منقبض الصدر للبحث وراء العدالة وطلب الانصاف ويندب الظلم والجور اللذين هما من ثمار الأنانية الناشئة عن حب الانسان للمال والمادة والسلطان . ونخرج من ذلك كله بنتيجة واحدة هي — في رأيه — أن الشيوع ضرورة لازمة لهذا العالم . ولكي نتمكن من تقدير الأثر الدائم الذي خلَّته مور ليس علينا إلا أن نستمع إلى هيثلودى في ساعات مرحة وحبوره ، وننصت إلى أفكاره النيرة وآرائه القيمة ، وقد نعجب منها وندهش لها ونحسبها ، وهي تتلى علينا ، أنها قيلت بالأمس أو في صباح اليوم ولعل في إيراد بعض مقتبسات منها — وهي مع الأسف مختصرة بقدر ما يسمح لنا المقام به — ما يغنينا عن عرضها كاملة . وأولها يتعلق بمساوىء الملكية الشخصية ، وهو قول موزون إلى حدٍّ ما ، ويقع في آخر الكتاب الأول حيث يتطالع هيثلودى إلى (يوتوبيا) ليقابل بأحوالها الأحوال السيئة التي سادت انكلترا يومئذ .

« إنني أرغب في أن أبوح صراحة بما تسكنه نفسي ويخالج ضميري : إنني لا أتصور مطلقاً أن بالاسكان أن تحكم بلاد بالعدل ، وأن يتمتع سكانها بالسعادة ، ما دامت هنالك ملكية شخصية للأشياء ، وما دامت النقود مقياس لجميع الأشياء الأخرى . أقولُ نحكم بالعدل لأن أحسن الأشياء تؤول إلى أسوأ الناس ؛ وأقول لا يتمتع السكان بالسعادة لأن كل الأشياء تقسم بين نفر قليل (ولا يكون ذلك النفر أيضاً سعيداً سعادة كاملة) وتخيم التعماسة والبؤس على باقي الناس ... وقد رسمتُ هذه الأشياء في خيالي ووازنت بينها في فكري ، فوجدتني قد يممت شطر افلاطون ... لأن هذا الحكيم قد رأى بعين بصيرته ، وصائب حكمته ، أن خير وسيلة لاسعاد الأمة هي أن تضع جميع أفرادها في مستوى واحد ، وهذا لا يمكن تحقيقه ما دامت .

في الوجود ملكية شخصية ؛ ذلك لأنه ما دام كل إنسان يستأثر لنفسه بكل ما يستطيع الحصول عليه من الأشياء بشتى الطرق والأسباب والوسائل ، فيجمع نفر قليل من بين أفراد الأمة الكثيرى العدد الثروة ويخمسون بها فينتج عن ذلك أن بعض الفقير بنابه العديد الأجل . وهذا ما حدا بنا الى القول إنه لن يكون توزيع عادل وصحيح لجميع الأشياء إلى أن تزول الملكية الفردية من الوجود ، كما أن العالم لن يحكم بوجه يضمن السعادة للناس الى أن يتم ذلك . وما دام نظام الملكية الشخصية سائداً فستظل أكرية الجنس البشرى وخياراً أبنائه تحت أثقال الظلم وأغلال الاستعباد وتقلقهم التعاسة ويؤلمهم الفقر ... ومع أننى أدرك أن من الصعب إزالة الملكية الشخصية حالا ولكننى أعتقد يقيناً أن بالامكان تخفيف ويلاتها . لأنه اذا سُن قانون يمنع كل فرد من تملك مقدار من الأرض يزيد على مساحة معينة ، ويحظر على كل إنسان أن يحرز ويحوز أكثر من مبلغ معين من النقود ... فان حدة هذه المساوىء تخف وأثرها يفقد ١ .

ونجد هيثلوى يتأوه عندما يعيد هذا الحديث فى آخر الكتاب الثانى ويقول : إن (يوتوبيا) هى الجمهورية الوحيدة الخليفة بأن تسمى جمهورية ؛ ثم يتابع حديثه :

« أما فى جميع الأماكن الأخرى فاننا نشاهد الناس يتحدثون عن الجمهورية ، ولكن كل فرد منهم لا يهتم إلا بجزء المغنم لنفسه وجمع المال لشخصه ؛ ولكننا هنا ، حيث لا يحوز فرد ما ولا يحرز أموالاً شخصية ، نجد الناس جميعاً يعملون باخلاص وذمة وغيرة من أجل الصالح العام ؛ والحق أنه ليس بعجيب أن ينتهج الناس هذا السبيل المغاير ؛ لأن الانسان

في البلاد الأخرى يُدرك يقيناً أنه إذا لم يدخر شيئاً لنفسه فسوف يموت في النهاية جوعاً مهما تكن بلاده في رخاء مستمر ، ومن هنا تنشأ ضرورة تفضيل مصلحته الفردية على الصالح العام ؛ غير أن الحال في (يوتوبيا) هي على النقيض من هذا : فلكل امرئ حق في جميع الموجودات ، وكل إنسان يدرك أنه ما دامت المستودعات العامة تفيض بالمؤن والأغذية فلن يحتاج أحد شيئاً ؛ وليس ثمة توزيع ظالم ، وليس هنالك فقراء ، وليس هناك محتاجون ؛ ومع أن فرداً ما ، لا يملك شيئاً ما ، فانهم جميعاً أغنياء ؛ ذلك لأنه لا فائدة يحنيها المرء من الغنى أحسن من أن يحيا حياة طيبة هادئة ، ويعيش عيشة هنية راضية لا تشوبها شوائب القلق والاضطراب ، فلا يخشى نوابس الحداث ، ولا تزججه زوجته بشكايات لاحتها خوفاً على مستقبلها ومستقبل أولادها ، ولا يحزنه عجزه عن تقديم مهر لابنته . والسكان هنا لا يعباون أبداً بحياتهم ، ولا يفكرون في ثرائهم وشراء أزواجهم وأولادهم وأولاد إخوانهم وأحفادهم وجميع عقبهم من بعدهم . ولا ينال العمال المتقاعدون نصيباً من ضروريات الحياة ومستلزماتها يقلُّ عن نصيب أمثالهم من العمال الفعّالين . وإنني - في هذا المقام - أتحدّى كلّ من يجرؤ على مقارنة هذه المساواة بحياة الأمم الأخرى ؛ وليخذلني الله إن وجدت فيها أثراً للمساواة أو ظلاً للعدل ' .

ثم ينطلق هيثلودي في حديثه عن العدل المفقود من العالم فتتجلى بلاغته وتظهر حكمته :

« أقول : أية عدالة هذه التي تمكن للنبل والصاغة والمرابين ولكل من لا يقوم بعمل ما ، أو يقوم بأعمال غير منتجة أو نافعة للمجتمع ، في أن

يعيشوا عيشة لينية فاعمة مبهجة ؛ بينما نجد العمال الذين يقومون بالأشغال الشاقة ومساكني العربات والحدادين والنجارين والحراثين الذين يشتغلون أكثر من الدواب ، ويقومون بالأعمال الضرورية لحياة المجتمع ، تلك الأعمال التي لا يستغنى عنها بلدٌ ما ، لا ينالون رزق الكفاف ، ويسيشون عيشة بؤس وشقاء ، إذا قيست بها حياة الأنعام كانت أفضل منها ؟ . . . وتدمى قلوب هؤلاء المساكين فرحاً متى ذكروا أيام شيخوختهم المقبلة . إن أجورهم نزره يسيرة لا تكاد تكفيهم لقوتهم اليومي فضلاً عن أن يدّخروا منها شيئاً لأيام عجزهم وتعطّلهم عن العمل . أليس ظلماً صارخاً ذلك الذي ييسط به الرزق للنبلاء - كما يسمونهم - وللصاغة وأمثالهم من الكسالى الذين لا يعملون شيئاً أو يقومون بأعمال لا تفيد المجموع شيئاً ، ويقبضه عن الحراث المسكين وعامل المنجم والعمال الآخرين والحدادين والنجارين وغيرهم من أركان الحياة في البلاد ؟ . . . وفوق كل هذا يقوم الأغنياء ليس بالغش وحسده ، وإنما بسنّ القوانين العامة أيضاً ، فينزعون من فم الفقير جزءاً من قوته اليومي . وهكذا فإن ما اعتبرناه قبلاً ظلماً صارخاً في أن يُسلب العامل جزاء عمله المفيد للمجتمع ، أصبح الآن يسمى في عرف القانون عدلاً^١ .

وأخيراً استمع إلى هذه الخاتمة الملتهبة التي هي في الواقع ثورة جامحة على أحوال العالم كله :

« من أجل ذلك فاتني كلما جالت بخاطري تلك الأحوال السائدة في العالم وأخذت علىّ لبي لا أستطيع كبح جماح نفسي ، غفر الله لي ، عن الاعتقاد بأن كل الحكومات التي شاهدها أو عرفتُها ، هي في الواقع

مؤامرة من الأغنياء ، الذين يستترون وراء حكم الجمهور ، يرومون من ورائها تنفيذ غاياتهم الخاصة ؛ وهم يسلكون في ذلك كل سبيل وواسطة تؤدي أولاً الى الاحتفاظ بكل ما تملكه من الأموال التي أحرزوها بالطرق المعوجة ، وثانياً الى استئجار واستغلال عمل الفقراء في مقابل أزهد الأجور وأتفهها ، وإلى ظلم العمال واستعبادهم^١ .

إن هذه الآراء (ونحن نورد هنا على علالتها كما تفوه بها هيثلودى) هي التي جعلت من يوتوبيا كتاباً خالداً مضى عليه أربعمئة عام . وإن من يترسم مبادئ^٢ ماركس في الثورة الاشتراكية يجد في مور (أو في هيثلودى ، الانسان الذي خلقه مور) رسوماً توصل الى كثير من تلك المبادئ . وإليك بعضها . وهذه طبعاً علاوة على مساوى^٣ الملكية الشخصية التي تحدثنا عنها فيما سبق حسب رأى مور : تبحث يوتوبيا في :

- (١) سيئات الطبقات غير المنتجة ،
- (٢) إسرافنا وإسائة استخدام الأموال ،
- (٣) مساوى^٤ النقود ولا سيما تأثير الذهب السام^٥ ،
- (٤) استغلال الغنى للفقير ؛ وأخيراً وهذا أعجب ما فى الكتاب :
- (٥) تصوير الدولة كمنظمة طبقية « مؤامرة بين الأغنياء » .

وإلى جانب كل هذا نجد أمراً لعله يتمشى مع المذاهب الفوضوية — هو الدعوة إلى تخفيض ساعات العمل بتنحية المكسالى القاعدين عن العمل لغير ما ضرورة أو مبرر مقبول ؛ وبازالة الكماليات من الوجود . والحق أنه يقال فى مور فقد أوجد فيه رفائيل هيثلودى تليذاً من أتباع الاشتراكية الماركسية الثورية لا يشق له غبار^٦ .